همایش ملی

میراث مشترک زبان، ادبیات و فرهنگ فارسی و عربی در حوزهٔ خلیج فارس

مجموعه مقالات

تدوین:

دکتر رسول بلاوی

۲۸-۲۷ بهمن ماه ۱۳۹۵

همایش ملی میراث مشترک زبان، ادبیات و فرهنگ فارسی و عربی در حوزهٔ خلیج فارس

دکتر رسول بلاوی

جهود الدكتور محمود البستانى فى تجديد الدراسات القرآنية والبلاغية والأدبية

أحمد جاسم ثاني[١]

الملخص

يُعدّ الدكتور محمود البستاني (رحمه الله) واحداً من أبرز أعلام الفكر العربي المعاصر، إذ عُرِف بدراساته القيّمة والمتنوعة في مجال علوم القرآن والتفسير والبلاغة والأدب والنقد، وغيرها من الدراسات الإنسانية التي أثرت ساحة الثقافة العربية والإسلامية، فقد جاءت هذه الدراسات برؤية جديدة قلّما نجد لها نظيراً في دراسات القدماء والمحدثين، إذ أنها تنطلق من منهج القرآن الكريم والتراث الإسلامي الأصيل المتمثل بكلام رسول الله وأهل بيته:

فمن أبرز ما جاء به البستاني هو المنهج البنائي في قراءة النصوص الأدبية، وركّز في دراساته على النصوص الشرعية (القرآن الكريم، وكلام المعصومين)، وأصبح هذا المنهج السمة الغالبة على جلّ مؤلفاته. وفي هذا البحث نحاول الوقوف عند هذه الجهود التجديدية التي تستحق التأمل طويلاً، لنتعرف على مكانة هذا الباحث الجليل وما قدمه من خدمة للغتنا العربية ولتراثنا اللغوي والأدبي الإسلامي، وذلك في ضوء الإطلالة على آثاره القرآنية والبلاغية والأدبية.

الكلمات الدليليّة: الدراسات القرآنيّة، الأدب، البلاغة، محمود البستاني.

[١]. جامعة البصرة/ كلية التربية – القرنة/ قسم اللغة العربية؛ ahmedjth@gmail.com

المقدمة:

قبسٌ من حياة الدكتور محمود البستاني

هو محمود بن عبد الحسين بن أحمد بن إسماعيل البستاني، ولد في النجف الأشرف عام ١٩٣٧م (خلف رصن، ٢٠١٠: ٢)، ونشأ في أسرة لها مكانتها وامتدادها المتميز في العلم والتقوى، فكان والده (الحاج عبد الحسين البستاني) على جانب كبير من التقوى والنزاهة والولاء لأهل البيت:، وكان له مجلس أسبوعي زاخر بالعلماء وأصحاب الوجاهة الاجتماعية، ومن جهة الأم فهي من أسرة هاشمية تعرف بـ (آل السرابي) التي برز منها كثير من العلماء والفضلاء في الحوزة العلمية آنذاك، ومن الطبيعي أن يتأثر الولد بكل هذه العوامل الخصبة، ويشق طريقه بكل ثقة نحو التميز والنجاح، فضلاً عن نشأته في مدينة العلم والعلماء النجف الأشرف، مما زاد في تكامل شخصيته العلمية والأخلاقية (الساعدي، ١٤٢١هـ: ٢١-٢٣).

وقد أوجز الدكتور عبد الجبار الرفاعي كل معالم شخصيته العلمية والدينية بقوله: «محمود البستاني؛ مفسر، أديب، شاعر، ناقد، ناسك، زاهد، متهجد، ورع، مدمن قيام الليل وصيام النهار ... كنت أحرص على حضور مجلسه الأسبوعي ليلة الثلاثاء في بيته. وهو مجلس يقتصر حضورُه على عدد محدود من أصدقائه. عادة ما يفتتحه هو رحمه الله بعرض نصوص روايات أخلاقية؛ من أحاديث النبي وأهل بيته:، تفوح بعبق مواعظ ووصايا تربوية ومؤشرات معنوية ...» (الرفاعي، لاتا: www.mominoun.com)

أما طلبه العلم فقد تدرّج في دراسته التقليدية في مدارس منتدى النشر في النجف الأشرف، وأكمل الدورة الأولى في كلية الفقه فتخرج عام ١٩٦١م، عاصر فيها مجموعة من طلبة العلم الذين برز منهم علماء أجلاء، أمثال السيد محمد محمد صادق الصدر، والشيخ محمود المظفر، والشيخ أحمد الوائلي، ثم سافر إلى مصر لإكمال الدراسات العليا، فدخل جامعة القاهرة كلية دار العلوم وقدّم رسالة الماجستير في عام ١٩٦٩م التي حملت عنوان (النقد الأدبي في العراق في القرن العشرين)، وعُيّن مدرساً في كلية الفقه عام ١٩٧٠م، وفيما بعد نال شهادة الدكتوراه عن أطروحته الموسومة بـ (المناهج النقدية في نقد المعاصرين)، وذلك عام ١٩٧٣م في جامعة القاهرة أيضاً (البستاني، ٢٠١٠: ٣).

ولم يكتفِ البستاني بالجانب الأكاديمي في طلب العلم، بل راح ينهل من معين العرفان على يد أحد رجاله وهو (الحاج عبد الزهرة الكرعاوي)، فهو شيخه وملهمه الروحي، الذي كان متيماً به، وطالما ذكره وأصرّ على أنه تلقى منه ما لم يحصل عليه من الدراسة الجامعية والمطالعة. ولفرط انغماره بالارتياض الروحي، وذوبانه في العبادات والطقوس، تجاهل بالتدريج ماضيه الأدبي، كشاعر مطبوع، وأديب محترف، وناقد أدبي، واسم متميز في الحداثة الأدبية الستينية في العراق، إلى الحد الذي كان لا يحبذ قراءة الشعر، أو استعادة أي شئ يشير الى ذاكرته الشعرية، أو الاهتمام بما أبدعه في الشعر، بل تناسى ما نشره وكتبه من قصائد، إلا أن كتاباته ظلت متأثرة بموهبته الأدبية ومطالعاته لنصوص الحداثة. (الرفاعي، لاتا:www.mominoun.com)

ويرصد الرفاعي حالة الانفتاح العلمي والثقافي التي كان يتحلى بها البستاني بقوله: «ومع أنه كان معلماً أخلاقياً، وقدوة تربوية في الحياة الروحية، لكنه لم يتهكم أو يزدري مَنْ لا يتطابق مع رؤيته وطريقة تفكيره. كان يدرك أنه ليس بالضرورة أن يتعطل عقلنا في حضرة معلم الأخلاق، أو يتوقف تفكيرنا في مقام ملهم الروح، ذلك أن مسارات القلب والروح غير مسالك العقل ودروبه. إن هذا الخلط بين المسالك والمسارات المختلفة أفضى بالمتصوفة الى تعطيل عقولهم، وجمود تفكيرهم، والركون الى مشايخهم في كل شأن دنيوي، بل اتخذ بعضهم من شيوخ الطرق الصوفية أوثاناً» (المصدر نفسه).

بدأ البستاني رحلة علمية طويلة من مدينته الأم (النجف الأشرف) واختتمها حتى وافته المنيّة عام ٢٠١١م في مدينة قم المقدسة التي هاجر إليها مُكرها؛ بسبب القيود والمضايقات التي فرضتها عليه الأجهزة الرقابية والأمنية البعثية إبان الحكم المقبور، وتُعد جهوده أنموذجاً للدارسين الأكاديميين الذين حاولوا إيجاد المبررات العلمية والأخلاقية لمحاولة تأسيس معرفة لا يمكن أن تقصي البعد الغائي الديني والأخلاقي الذي يكتنفها بالضرورة، وقد توزّع نتاجه المعرفي بين مجالات علمية وأكاديمية عدة، كعلم الاجتماع وعلم النفس وحقول إنسانية أخرى، غير أن دراساته الأدبية كانت هي النشاط الأبرز من مجموع نتاجه، إذ أخذت الفكرة التي راودته منذ شبابه الباكر تنطلق لتكون بمثابة المشروع أو الحلم الكبير في محاولة أسلمة المعرفة الأدبية التي تدخل ضمن تخصصه العلمي الدقيق (الرفاعي، لاتا:www.mominoun.com).

نظريته في قراءة النصوص

يُذكر أن البستاني كان حتى آخر حياته لا يزهد بمطالعة النصوص الإبداعية الأدبية، والإنتاج الفكري الجديد؛ لذا فإن «بصمة بيانه المكثف تطبع الحقول كافة التي كتب فيها، ففي كتاباته ترتسم النصوص بلغة غنية، غزيرة، مضيئة، حين تقرؤها كأنك تلتقي بأطياف قصيدة نثر، أو شذرات المتصوفة الكبار، كالنفري، والحلاج، وابن عربي» (الرفاعي، لاتا:www.mominoun.com)

ويرى البستاني أن قراءة النص وفهمه وتحليله لا يمكن أن تتم في ضوء النظرة التجزيئية للنص كما فعل القدماء من علماء البلاغة في تعاملهم مع النصوص، بل لابد من النظرة الكلية للنص، بوصفه وحدة لغوية كاملة تشبه أعضاء الجسد الواحد، يتمم بعضه بعضاً، ولا يمكن فصل أحد أعضائه بأي حال من الأحوال، وهو ما عبّر عنه بالعنصر البنائي (البستاني، ١٤١٤هـ: ١٤ و٣١٣)، الذي صار منهجه في التعامل مع النصوص الأدبية، فاكتملت هذه الرؤية على يديه بين النظرية والتطبيق عبر دراساته المتنوعة في علوم القرآن والتفسير والبلاغة والأدب، وجعل شغله الشاغل دراسة النصوص الشرعية (القرآن الكريم، وكلام المعصومين:) التي لم تنل حقها في الدراسات البلاغية القديمة، حتى أصبح هذا التوجه السمة البارزة في كتاباته، وقد وُفّق إلى حدٍ كبير في مشروعه هذا، وهو مشروع ريادي لم يسبقه أحد من قبل، ولاسيما دراساته لكلام المعصومين.

جهوده في تجديد الدراسات القرآنية

تنبّه البستاني إلى قصور الدراسات القرآنية – القديمة منها والحديثة – عن إعطاء القرآن الكريم حقه من الفهم والتفسير، فبعض الاتجاهات التفسيرية اتبعت المنهج "التجزيئي" للآيات بحسب تسلسلها في السورة، وبعضها الآخر اتبع المنهج "الموضوعي" للظواهر القرآنية، وفي الحالتين لم يُنظر للسورة على أنها نص تترابط آياته ومقاطعه وموضوعاته وعناصره وأدواته فيما بينها، خلا بعض الإشارات العابرة في دراسات القدماء، كما في كلامهم عن (النظم) مثلاً، وهي إشارات جزئية لبعض المواقع من النص، أما الدراسات الحديثة التي حاولت أن تطور النظرة القديمة، وتدرس السورة بوصفها نصاً، ظلت هي الأخرى مقتصرة على بعض السور ولم تتناول السور جميعاً، أو تناولتها ولكن في حدود تبيين موضوعاتها والمحاور التي تركز عليها السورة (البستاني، ١٤٢٢هـ: ١٣)؛ لذلك رأى البستاني أن

ينهض بمهمة الفهم الكلي لسور القرآن الكريم عبر منهجه الذي اختطه لنفسه وأسماه (التفسير البنائي)، وتكلم عنه في كثير من مؤلفاته وبحوثه وحواراته بشكل واضح وصريح.

وعرّف مصطلح التفسير البنائي بأنه «دراسة النص القرآني الكريم من خلال (السورة) بصفتها (وحدة) لغوية لها بناؤها الخاص المتمثل في نص تترابط آياته وموضوعاته وعناصره وأدواته بعضها مع الآخر» (البستاني، ١٤٢٢هـ: ١٥١). وهو منهج يقوم على دراسة السورة القرآنية الكريمة من حيث بناؤها العماري والهندسي وما يحكم هذا البناء من علاقات عضوية تجعل أجزاء النص مرتبطة بعضها بالأخر على وفق سببية محكمة (البستاني، ١٤٢٧هـ: ١٢٦).

والمنهج البنائي من المناهج التفسيرية الحديثة وهو تأصيل فكري معاصر يهدف إلى إبراز ملامح نوع جديد من التفسير أبتكره البستاني الذي وضّح ملامح تفسيره بمنهج تحليلي استدلالي في ضوء التعرض إلى بعض الآيات القرآنية واستخراج ما فيها من خصائص أدبية ولغوية (لجنة التأليف، لاتا: ٦٨)

وأهم ما يميز هذا المنهج التفسيري عن غيره أنه يولي (السورة) مكانة خاصة بوصفها شكلاً لغوياً تنتظم داخله الآيات ويحتوي على وحدة موضوعية واحدة *(المصدر نفسه: ٥٠)*، كما أنه يختلف عن سواه بكونه يتوفر على دراسة البعدين الجمالي (الأدبي) والدلالي (العلمي)، فدراسته للنص القرآني أكثر سعة من الدراسات القرآنية الأخرى (البستاني، لاتا: www.altaghrib.net(

إن دراسة السور القرآنية وتفسيرها عبر المنهج البنائي يتم على وفق أسلوبين: أحدهما: الوقوف عند السمات الفكرية أو الموضوعية التي تربط الآيات بعضها مع الآخر، والثاني: الوقوف عند السمات الفنية، أي ملاحظة مجموع السور من حيث بدايتها ووسطها ونهايتها من جانب، ثم علاقة كل آية بما سبقها ولحقها، وهو ما يُعرف بـ (السياق القرآني)، ثم ملاحظة العناصر القصصية واللفظية والصورية والإيقاعية (الصوتية) وغيرها مع ملاحظة هذه العناصر، ومدى إسهامها في عملية الربط بين أجزاء السورة، ثم كيفية توظيفها من أجل إنارة الفكرة التي يتضمنها النص (البستاني، ١٤٢٢هـ، ج١: ٨).

ويذكر البستاني مثالاً تطبيقياً على منهجه التفسيري وذلك بدراسة سورة الكهف دراسة بنائية، إذ يلاحظ أن لهذه السورة أثر كلي يتركه نصها من خلال (التضاد)، فالسورة الكريمة تطرح ظاهرة (زينة

الحياة الدنيا) عبر جملة آيات، وتتوكأ على العنصر القصصي في تجلية الظاهرة المذكورة، إنها تطرح قصة أهل الكهف بعد أن تمهد لها بالآية القائلة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف/٧)، وتطرح قصة صاحب الجنتين، وتطرح قصة ذي القرنين، في مواقع مختلفة من النص، وتطرح أيضا قصة موسى وصاحبه، فالمتلقي وهو ينتهي من قراءة النص سيزدحم في خاطره أكثر من موقف يضاد الآخر، وأكثر من شخص يضاد الآخر ... فأهل الكهف قد انزووا تماماً ونبذوا زينة الحياة الدنيا مع أنهم يحتلون مراكز القوى في السلطة، إلا أن صاحب الجنتين تشبث بزينة الحياة الدنيا إلى درجة يشكك بقيام الساعة، وهذا يعني تضاداً بين بطلي القصتين، وهناك تضاد نلاحظه أيضاً من زاوية أخرى بين صاحب الجنتين (المزرعتين) وبين صاحب شرق الأرض وغربها (ذي القرنين)، فمع أن الأخير ملك الأرض شرقها وغربها فإنه هتف قائلاً: هذا من رحمة الله تعالى، بينما صاحب الجنتين وهما عديمتا القيمة قياساً بشرق الأرض وغربها كفر بنعم الله تعالى، وهذا يعني تضاداً بين بطلي القصتين. ويتساءل البستاني: ماذا يعني مثل هذا التضاد بين أبطال متفاوتين في المركز والأدوار؟ ويجيب عن ذلك بقوله: إن قارئ النص سوف تحتفظ ذاكرته بالأثر (الكلي) الذي تتركه هذه القصص المتضادة، بحيث يخلص منها إلى ضرورة نبذ زينة الحياة الدنيا. إذاً تظل القراءة الكلية للنص ذات أثر أشد سعة من القراءة التجزيئية أو الموضوعية (البستاني، ١٤٢٢: ١٥٦-١٥٧).

وفي هذا المجال يذكر الدكتور عبد الجبار الرفاعي أن التجربة الأولى التي دشنها البستاني في هذا النمط من التفسير، تمثلت في نشره كتابه "في التعبير القرآني" سنة ١٩٨٠م، وضمّنه أنموذجاً تطبيقياً للتفسير البنائي أو العضوي، ثم واصل تطبيق منهج التفسير البنائي على القرآن الكريم في تفسيره، كما استخلص رؤى أولية للأصول النظرية لهذا التفسير (الرفاعي، لاتا: www.mominoun.com) ويدعو الرفاعي إلى استئناف النظر في تفسير البستاني دراسة وتدريساً؛ ذلك أنه يمثل محاولة متميزة في دراسة بنية السورة القرآنية ومنطقها وشخصيتها، واكتشاف نسيج العناصر والمفاهيم والمقولات الخاصة المكونة لعمارة كل سورة (المصدر نفسه).

فالبستاني اختار تسمية "عمارة السورة القرآنية" لتفسيره – أول الأمر – وكأنه يحاكي "عمارة المباني الجميلة"، بكل ما تشي به من جمال، وافتتان، ودهشة، وجلال، ولمسات فنية، وإيقاع متناغم مع البيئة. إنه يرى الآيات والسور مثلما يشاهد اللوحات الفنية المبهجة للفنانين البارعين *(المصدر نفسه)*. وفيما بعد استقر الاسم على التفسير البنائي للقرآن الكريم.

دراساته القرآنية

اتبع البستاني المنهج البنائي في دراساته القرآنية، وتنوعت عنواناتها بحسب الموضوعات التي عالجتها، وهي كما يأتي:

١- **التفسير البنائي للقرآن الكريم**: وهو مؤلف من خمسة أجزاء، يبدأ بتفسير الحمد وينتهي بتفسير سورة الناس، يتصدر الجزء الأول كلمة للناشر، وهو مجمع البحوث الإسلامية التابع للاستانة الرضوية المقدسة، ثم مقدمة للمؤلف يذكر فيها المنهج الذي اتبعه في التفسير والقواعد التي يقوم عليها (البستاني، ١٤٢٢هـ، ج١: ٥-١٠).

٢- **دراسات فنية في التعبير القرآني**: وهو دراسة في سورة البقرة، ويحتوي على عدة مباحث، كلها تدور حول الجانب الفني في السورة، كالعنوان ومهمته العضوية، والقيم الفنية في القصة كالأحداث والشخصيات والمواقف والبيئات والحوار ... وهذا الكتاب منشور في بيروت سنة ١٩٨٤م.

٣- **دراسات فنية في صور القرآن**: ينحو البستاني منحى فنياً جمالياً في التقاط بعض الصور البلاغية في القرآن الكريم، فيبدأ بسورة البقرة وينتهي بسورة الفيل، إذ أنه يستثني بعض السور التي تتسم باللغة العلمية البعيدة عن الصور الفنية، كما في سورة (الإخلاص) مثلاً، فهو يختار أبرز الصور الفنية في كل سورة، ويقف عندها مفسراً ومحللاً وموضحاً بعض الدلالات المعجمية والسياقية، وكاشفاً عن التناسب الجمالي بين الصور وموضوع السورة.

٤- **دراسات فنية في قصص القرآن**: وهو دراسة بلاغية لقصص القرآن الكريم، قدّم له المؤلف بجانب نظري عن القصة وتعريفها، وفرّق بين القصص التاريخي والقصص الفني، ثم فرّق بين القصص الخيالي الافتراضي وقصص القرآن الكريم الذي يتسم بالواقعية والحقيقة (البستاني، ٢٠١٣: ٧-٩) والكتاب يقتصر على دراسة السور التي اشتملت على القصص القرآني فقط.

٥- **دراسات في علوم القرآن**: ينحو البستاني في هذا الكتاب منحى جديداً في دراسة مباحث علوم القرآن، فيولي عنايته ببعض المسائل التي غابت عن القدماء، أمثال الحديث عن القصة القرآنية بشكل أعمق، والوقوف عند عناصرها ومكوناتها، والتنظير لنوع جديد من الإعجاز، ألا وهو (الإعجاز البنائي للقرآن)، وغيرها من الموضوعات التي ترتبط بالوحي ونزول القرآن والمكي والمدني ... إلخ.

٦- **قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً**: كتاب مؤلف من جزءين، وهو دراسة أخرى لقصص القرآن، وفي مقدمته يمهد المؤلف بجانب نظري مهم عن منهج دراسة القصة القرآنية، فيشير إلى نمطين من المعنيين بدراسة قصص القرآن الكريم، أحدهما يُعنى بقصص القرآن الكريم فكرياً، أي يدرس القصص بوصفها وقائع أو مواقف تاريخية تتناسب مع موضوع السورة في الفقه أو العقيدة أو الأخلاق ... إلخ، والنمط الثاني يُعنى بالجانب الفني الجمالي فضلاً عن الجانب الفكري، ويرجح النمط الآخر الذي يكشف عن إعجاز القرآن البلاغي، وهو ما اتبعه في كتابه هذا، وسعى لاستيعاب كل قصص القرآن الكريم (البستاني، ١٤٢٨هـ، ج١: ١١-١٢).

٧- **المنهج البنائي في التفسير**: يُعد هذا الكتاب مقدمة مهمة للتفسير، وفيه نماذج من التفسير لبعض سور القرآن، نشرته مجلة قضايا إسلامية معاصرة التي يترأس تحريرها الدكتور عبد الجبار الرفاعي، وتحدّث عن هذا الكتاب قائلاً: «اقترحت على المرحوم البستاني أن أعدّ له كتاباً، يشتمل على بعض نصوصه السابقة، مع حوار أجريته معه ونشرته في مجلة قضايا اسلامية معاصرة. وأسميت الكتاب: "المنهج البنائي في التفسير"، فوافق هو على العنوان. وكتبت له مقدمة تناولت فيها ملامح هذا المنهج ونشأته وتطوره، وجهود البستاني في إغنائه وتوظيفه في دراساته القرآنية، ثم في تفسيره الموسوم بـ: "عمارة السورة القرآنية"» (الرفاعي، لاتا: www.mominoun.com)

٨- **بحوث وحوارات قرآنية كثيرة**، منشورة في المجلات العلمية والمواقع الأليكترونية، اتبع فيها البستاني المنهج نفسه.

جهوده في تجديد الدراسات البلاغية والأدبية

على الرغم من محاولات تجديد البلاغة العربية التي ظهرت في الأزهر وما نادى به كل من محمد عبده وأمين الخولي وأحمد الشايب وعبد الله العلايلي وغيرهم، لم ترقَ محاولة منها إلى ما جاءت به محاولة البستاني في تجديد البلاغة العربية، إذ رأى أن «البلاغة القديمة تطبعها جملة من العيوب التي لا يمكن التغاضي عنها؛ بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن صياغة قواعدها تمتد إلى أكثر من ألف عام، حيث حدثت تطورات فنية خلال هذا الزمن؛ بنحو يجعل البلاغة الموروثة قاصرة عن تمثّل ذلك ..» (البستاني، ١٤١٤هـ: ١٦)

ومن هذه العيوب أن البلاغة القديمة لم تتناول كل أشكال الفن وكل قواعده، كما في القصة التي احتلت مساحة كبيرة من نصوص القرآن الكريم، ولم تتحدث عنها البلاغة القديمة بكلمة واحدة

على الرغم من اعتنائها بدراسة الإعجاز القرآني، ومن عيوبها أيضاً أنها تنظر إلى النص بشكل "جزئي" بدلاً من النظرة "الكلية"، فتقتصر على دراسة المفردة أو الجملة أو الفقرة، كالمسند والمسند إليه وقيودهما من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير ... في علم المعاني، والتشبيه والاستعارة والكناية في علم البيان، والمحسنات اللفظية والمعنوية في علم البديع، في حين أن النص الأدبي لا تنحصر جماليته في فقرات أو آيات مستقلة، وهنا يحيلنا الكلام إلى كلامنا السابق عن المنهج البنائي الذي ابتكره البستاني في التفسير وانسحب على أسلوبه في قراءة النصوص الأدبية بشكل عام وظهر جلياً في مؤلفاته التحليلة، فضلاً عن ذلك فإن بعض مفاهيم البلاغة الموروثة فيها شيء من التناقض والخطأ في المعيار، ومثال التناقض في المفاهيم: أن البلاغيين ذهبوا إلى أن التشبيه الذي حُذفت أداته ووجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره، وهو تناقض مع قولهم بأن التشبيه الذي تتعدد أوجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره! وأما خطأ المعيار فيتمثل بقولهم أن التشبيه الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه أبلغ من غيره يترتب عليه أن يكون التشبيه في القرآن الكريم الذي يشتمل على ذكر الأداة ووجه الشبه – غالباً – أقلّ بلاغة من التشبيه الذي يصوغه البشر، وهذا هو الكفر بعينه ببلاغة القرآن (البستاني، ١٤١٤: ١٣-١٦).

ويصرّح البستاني بعيوب معايير البلاغيين القدماء، ويصفها بأنها مخالفة لبلاغة القرآن الكريم، فضلاً عن كونها منافية لأبسط مبادئ التذوّق الفنّي *(المصدر نفسه: ١٦)* لذا أعلن عن نظريته البلاغية الجديدة بقوله: «إن هذه العيوب ونظائرها ... تحملنا على إعادة النظر في البلاغة الموروثة، ومحاولة صياغتها من جديد في ضوء النصوص الشرعية "الكتاب" و"السنة" حيث نحاول أن ننتزع قواعدها من نصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي وأهل البيت:، وهي نصوص إعجازية تخطّت حدود الزمن؛ بحيث صيغت بنحوٍ تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية، ومنها "المعايير البلاغية الحديثة» *(المصدر نفسه: ١٧)*

ومن هذا النص يتضح منهج البستاني في تجديد البلاغة العربية، ويتمثل هذا التجديد في كتابه (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي)، الذي جاء بتقسيم جديد لأبواب البلاغة العربية وإضاف إليها عناصر جديدة، كالعنصر الفكري، والعنصر الموضوعي، والعنصر المعنوي، والعنصر الصوري، والعنصر اللفظي، والعنصر الإيقاعي، والعنصر الشكلي، والعنصر البنائي، وتحت كل منها فنون مختلفة.

كما يتضح من النص السابق التداخل بين مصطلحي البلاغة والأدب عند البستاني، إذ قدّم البستاني – في ضوء رؤيته التجديدية – دراسات أدبية بلاغية تطبيقية لنصوص المعصومين: ولأول مرة في تاريخ الأدب العربي، فقام بدراسة الأجناس الأدبية المختلفة كالخطبة، والكتاب، والرسالة، والوصية، والمقال، والخاطرة، والدعاء، والزيارة، والحديث الفني، وهو تجديد على مستوى دراسة الأدب العربي أيضاً. وهو ما نجده في كتابيه (أدب الشريعة الإسلامية)، و(تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي).

وقد سجّل البستاني ملاحظته على كتب تاريخ الأدب العربي، لكونها تغافلت دراسة أدب المعصومين:، فقال: «إنّه من المؤسف جداً أن نجد على سبيل المثال الكتب المؤرّخة للأدب العربي تتجاهل أدب الشريعة الإسلامية، بخاصة أدب الأربعة عشر معصوماً (ما عدا نصوص النبي٩ والإمام علي٧) وتتجاهل سائر المعصومين: الذين قدّموا مختلف النصوص الفنية من خطبٍ ورسائل وأحاديث وأمثلة ... إلخ، بينما نجد الكتب المؤرخة للأدب العربي تقدّم نصوصاً لمعاوية والحجّاج والخوارج وسواهم (وهم أعداء الطائفة المحقّة) وهم ينهلون من تراثهم: ...» (البستاني، ١٤٢٤هـ: ١٢)

لذا فقد أخذ البستاني على عاتقه مهمة إستخراج هذا الكنز المعرفي واللغوي ودراسته ونشره، عبر أسلوب بلاغي أدبي جديد، فهو بلاغي؛ لأنه يتعامل مع النصوص بالأدواة البلاغية التي جددها وأعاد صياغتها، وأدبي؛ لأنه أوجد أجناساً أدبية مغمورة لم تكن بارزة من قبل، فقد برع البستاني وأبدع في مجال الأدب «محاولاً وضع معارفه تحت التجريب ضمن مشروعه أو حلمه الأكاديمي فإن الرجل يضع تصوره للأدب على وفق مبدأين أساسيين، هما: (الأدب والرؤية) و(الأدب والتوصيل) فلا أدب حقيقي بدون رؤية أصيلة وهادفة تحيط بوعي الأديب وتؤرقه لممارسة الإبداع الذي لا يكتمل شرطه المعرفي والإنساني من دون الركن الثاني وهو (التوصيل) الذي تكمن من خلاله قدرة الأديب على إيصال قناعاته ورؤاه التي اشترط البستاني أصالتها واستقامتها ومشروعيتها في محاولة النهوض بالأمة والأخذ بيدها وفقاً لتعاليم الإسلام الهادفة والمحصّنة ضد التبعية والانجرار مع التيارات الخاوية والفارغة من المعنى والقادمة من تربة تختلف جذرياً عن تربتنا العربية الإسلامينة» (البستاني، لاتا: im.imamhussain.org)

يتضح ذلك جلياً في كتابه (أدب الشريعة الإسلامية) الذي وصفه بأنه دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأربعة عشر معصوماً:، وفعلاً هو كذلك، إذ يبدأ بدراسة أدب

القرآن الكريم، ثم ينتقل إلى دراسة أدب المعصومين: بدأً برسول الله٩ وانتهاءً بآخر الحجج الإمام المهدي المنتظر، والأمر نفسه نجده في كتابه (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي)، إلا أنه في هذا الكتاب يورد النصوص الشرعية ضمن أدب العصور المختلفة، فيبدأ بدراسة أدب ما قبل الإسلام، وينتقل إلى أدب عصر الإسلام، فالأموي فالعباسي، ويذكر أدب القرآن الكريم، وأدب كل معصوم بحسب المدة الزمنية التي عاصرها، فيقف عند كل جنس أدبي وصل إلينا عنهم: في كتب الروايات والتاريخ الموثوق، فهو أدب هادف، مستبعداً بذلك الأدب المبتذل والفاحش، ومقتصراً على ما هو بارز وما له علاقة بطبيعة المرحلة التاريخية التي مر بها الأدب العربي، وهو بهذا يعيد صياغة تاريخ الأدب العربي، ويصحح أخطاء مؤرخي هذا الأدب.

خاتمة البحث

بعد هذه الجولة السريعة في تراث الدكتور محمود البستاني (رحمه الله) لابد من الاعتراف بالتقصير عن الإحاطة بكل جهوده الجليلة والمباركة، هذه الجهود التي باركها الله بأن أخذ بيد صاحبها لاقتباس نور من أنوار الثقلين، فجاءت دراساته جادة وجديدة، ويكفيه فخراً أنها صارت مصدراً لكل مَن يريد دراسة نص من النصوص الشرعية، من قرآن أو دعاء أو حديث أو خطبة أو رسالة إلخ، فهو رجل رائد من رواد التجديد في عصرنا الحاضر، عاش شطراً من حياته في حاضرة العلم والعلماء (النجف الأشرف)، وأكمل بقية عمره في مدينة قم المقدسة بجوار السيدة المعصومة٣ حيث الأجواء الروحانية والعلمية المباركة، مما أهّله أن يبرع في خدمة التراث الإسلامي ودراسته وإحيائه، فجاءت مؤلفاته جديدة مفيدة، متنوعة سهلة ممتنعة، يمتزج فيها مسك القرآن بندى البلاغة وعطر الأدب، فهو رجل موسوعي، كتب في مختلف الفنون والعلوم، إذ قدّم دراستين في النقد الأدبي، ودراسة عن علم النفس، وأخرى عن علم الاجتماع، فضلاً عن منهجية البحث الأدبي .. وهو في الوقت نفسه عالم أخلاقي —كما يصفه أصحابه —كان همه بعث الروح الإسلامية الأصيلة في الأمة الإسلامية من خلال الرجوع إلى مصادر الإسلام الصافية (الكتاب والسنة) فحقق الله تعالى له ما أراد، فأبدع في مجال علوم القرآن والتفسير وبلاغة أدب المعصومين.

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا القليل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يأخذ بأيدينا لإحياء تراثنا الإسلامي الأصيل، والسير على هدي الثقلين، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

مصادر البحث

- القرآن الكريم.

البستاني، محمود (١٤١٤هـ)، **القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي**، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، إيران – مشهد.

ـــ ـــ (١٤٢٢هـ)، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، ط١، مشهد: مجمع البحث الإسلامية.

ـــ ـــ(١٤٢٢هـ)، **المنهج البنائي في التفسير**؛ مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ط١، دارالهادي: بيروت لبنان.

ـــ ـــ (١٤٢٤هـ)، **أدب الشريعة الإسلامية**، ط١، قم: مؤسسة السبطين العالمية.

ـــ ـــ (١٤٢٧هـ)، **دراسات في علوم القرآن الكريم**، ط١، قم: مطبعة البقيع.

ـــ ـــ (١٤٢٨هـ)، **قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً**، ط٢، قم: مؤسسة السبطين العالمية.

ـــ ـــ (٢٠١٠)، «التفسير البنائي للقرآن الكريم، **مجلة المصباح**، العدد الأول.

ـــ ـــ (٢٠١٣)، **دراسات فنية في قصص القرآن**، ط٢، بيروت: دار البلاغة.

ـــ ـــ (لاتا)، **الفهم المتجدد لآيات القرآن المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي**؛ حوار مع الدكتور محمود البستاني: www.altaghrib.net.

خلف رسن، هادي (٢٠١٠م)، **الدكتور محمود البستاني ومنهجه في تحليل النص القرآني**، رسالة ماجستير)، البصرة: التربية.

الرفاعي، عبدالجبار (لاتا)، **الأخلاقي المفسر محمود البستاني**، www.mominoun.com.

الساعدي، محمد (١٤٢١هـ)، **الدكتور محمود البستاني مفكراً إسلامياً**، ط ١، مطبعة أمير.

لجنة التأليف (لاتا)، **أسئلة وأجوبة قرآنية**؛ لجنة التأليف وإعداد المناهج في دائرة الشؤن القرآنية، مؤسسة البلاغ.

ياسين،علی(لاتا)**محمود البستاني...أسلمة المعارف الأدبية**؛ im.imamhussain.org.